٥ ـ باب المؤمن يموت بعرق الجبين

عن بريدة أن النبي ﷺ قال: «المؤمن يموت بعرق الجبين»[١].

قال عبد اللَّه بن مسعود: إن المؤمن يبقىٰ عليه خطايا من خطاياه فيجازف بها عند الموت ـ أي يجازىٰ ـ فيعرق لذلك جبينه[٢]. وقال بعض العلماء: إنما يعرق جبينه حياء من ربه لما اقترف من مخالفته؛ لأن ما سفل منه قد مات، وإنما بقيت قوىٰ الحياة وحركاتها فيما علا، والحياء في العينين، وذلك وقت الحياء، والكافر في عمىٰ عن هذا كله، والموحّد المعذب في شغل عن هذا بالعذاب الذي قد حل به. وإنما العرق الذي يظهر لمن حلت به الرحمة، فإنه ليس من وليّ ولا صديق ولا برّ إلَّا وهو مُستّحٍ من ربه، مع البشرىٰ والتحف والكرامات. واللَّه أعلم.

وفي حديث ابن مسعود: «موت المؤمن بعرق الجبين تبقىٰ عليه البقية من الذنوب فيجازىٰ بها عند الموت»[٣] أي يشدد لتمحص عنه ذنوبه.

* * *

٦ ـ باب ما جاء أن للموت سكرات وفيما يصير الإنسان إليه

وصف اللَّه سبحانه وتعالىٰ شدة الموت في أربع آيات:

الأولى: قوله الحق: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [قَ: ١٩].

الثانية: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ [الأنعام: ٩٣].

---

(١) أحمد (٥/ ٣٥٧، ٣٦٠)، والترمذي في الجنائز (٩٨٢)، والنسائي في الجنائز (٤/ ٦)، وابن ماجه في الجنائز (١٤٥٢) وغيرهم.

(٢) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ٥٢٤) موقوفاً علىٰ ابن مسعود، وسيأتي تباعاً.

(٣) أبو نعيم في الحلية (٥/ ٥٩)، والبيهقي بنحوه في الشعب (١٠٢١٥)، (١٠٢١٦). وله طرق أخرىٰ يتقوىٰ بها. وهو موقوف علىٰ ابن مسعود.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣].

الرابعة: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ [القيامة: ٢٦].

عن عائشة رضي اللَّه عنها: أن رسول اللَّه ﷺ كانت بين يديه ركوة أو عُلبة فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: «لا إلـه إلَّا اللَّه، إن للموت سكرات» ثم نصب يديه فجعل يقول: «في الرفيق الأعلى» حتى قبض ومالت يده[١].

وفي البخاري عنها قالت: «مات رسول اللَّه ﷺ وإنه لبين حاقنتي وذاقنتي. فلا أكره شدة الموت لأحد أبداً بعد النبي ﷺ»[٢].

الحاقنة: المطمئن بين الترقوة والحلق، والذاقنة: نقرة الذقن. وقال الخطابي: الذاقنة: ما تناله الذقن من الصدر.

وذكر المحاسبي في «الرعاية»: أن اللَّه تعالى قال لإبراهيم عليه السلام: «يا خليلي كيف وجدت الموت؟» قال: كسفّود محمّى جُعل في صوف رطب، ثم جُذب، قال: «أما إنّا قد هوّنا عليك يا إبراهيم»[٣].

وروي أن موسى عليه السلام لما صار روحه إلى اللَّه. قال له ربه: «يا موسى كيف وجدت الموت؟» قال: وجدت نفسي كالعصفور الحي حين يُقَلَى على المِقْلَى لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير. وروي عنه أنه قال: وجدت نفسي كشاة تسلخ بيد القصّاب وهي حيّة. وقال عيسى عليه السلام: «يا معشر الحواريين ادعوا اللَّه أن يهوّن عليكم هذه السكرة» يعني سكرات الموت.

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥١٠).

(٢) رواه البخاري في المغازي (٤٤٤٦).

(٣) ذكره المحاسبي في الرعاية (ص ١٤٠ ـ ١٤١)، ورواه أحمد في الزهد (ص١٠٠) بسند حسن إلى عبد اللَّه بن أبي مليكة. وهو من الإسرائيليات. وقد صح في الحديث: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج». فهذا الخبر وما بعده مما يصلح في الرقائق؛ بشرط ألا نصدق ولا نكذب.

وروي: أن الموت أشد من ضرب بالسيوف، ونشر بالمناشير، وقرض بالمقاريض.

ويقال: إنه لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة قال له ابنه: يا أبتاه، إنك لتقول لنا: ليتني كنت ألقىٰ رجلاً عاقلاً لبيباً عند نزول الموت حتىٰ يصف لي ما يجد، وأنت ذلك الرجل؛ فصف لي الموت، فقال: يا بني واللَّه كأن جنبي في تخت. وكأني أتنفس من سم إبرة. وكأن غصن شوك يجذب من قدمي إلىٰ هامتىٰ. ثم أنشأ يقول:

ليتني كنت قبل ما قد بدا لي ... في تلال الجبال أرعىٰ الوعولا

وأنشدوا:

أذكر الموت ولا أرهبه ... إنّ قلبي لغليظ كالحجر
أطلب الدنيا كأني خالدٌ ... ورائي الموت يقفو بالأثر
وكفىٰ بالموت فاعلم واعظاً ... لمن الموت عليه قد قُدر
والمنايا حوله ترصده ... ليس يُنجِي المرءَ منهنّ المفر

وقال آخر:

بينا الفتىٰ مرحُ الخُطا فرحٌ بما ... يسعىٰ له إذ قيل: قد مرض الفتىٰ
إذ قيل: بات بليلة ما نامها ... إذ قيل: أصبح مثخناً ما يرتجىٰ
إذ قيل: أصبح شاخصاً وموجها ... ومعللاً. إذ قيل: أصبح قد قضىٰ

فصل: أيها الناس: قد آن للنائم أن يستيقظ من نومه، وحان للغافل أن يتنبه من غفلته، قبل هجوم الموت بمرارة كاسه، وقبل سكون حركاته، وخمود أنفاسه، ورحلته إلىٰ قبره، ومقامه بين أرماسه.

روي عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلىٰ أناس من أصحابه يوصيهم، فكان فيما أوصاهم به أن كتب إليهم:

«أما بعد: فإني أوصيكم بتقوىٰ اللَّه العظيم، والمراقبة له، واتخذوا التقوىٰ والورع زاداً، فإنكم في دار عما قريب تنقلب بأهلها، واللَّه في عرصات القيامة وأهوالها يسألكم عن الفتيل والنقير، فاللَّه اللَّه عباد اللَّه. اذكروا الموت الذي لا بد منه، واسمعوا قول اللَّه تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. وقوله عز وجل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]. وقوله عز وجل: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧] فقد بلغني ـ واللَّه أعلم ـ أنهم يضربون بسياط من نار. وقال جل ذكره: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١].

وقد بلغني ـ واللَّه أعلم ـ أن حملة العرش إذا قرب ملك الموت من أحدهم ذاب حتىٰ يصير مثل الشعرة من الفزع منه.

وبلغني أن ملك الموت ينتزع روح بني آدم من تحت عضوه وظفره وعروقه وشعره، ولا تصل الروح من مفصل إلىٰ مفصل إلَّا كان أشد عليه من ألف ضربة بالسيف.

وبلغني أنه لو وضع وجع شعرة من الميت علىٰ السمٰوات والأرض لأذابها حتىٰ إذا بلغت الحلقوم ولي القبض ملك الموت.

وبلغني أن ملك الموت إذا قبض روح المؤمن جعلها في حريرة بيضاء ومسك أذفر، وإذا قبض روح الكافر جعلها في خرقة سوداء في فخار من نار أشد نتناً من الجيف.

وفي الخبر أنه إذا دنت منية المؤمن نزل عليه أربعة من الملائكة: ملك يجذب النفس من قدمه اليمنىٰ، وملك يجذبها من قدمه اليسرىٰ، والنفس تنسل انسلال القطرة من السقاء، وهم يجذبونها من أطراف البنان ورؤوس الأصابع. والكافر تنسل روحه كالسفود من الصوف المبتل.

فمثل نفسك يا مغرور: وقد حلت بك السكرات، ونزل بك الأنين والغمرات. فمن قائل يقول: إن فلاناً قد أوصىٰ، وماله قد أحصىٰ. ومن قائل يقول: إن فلاناً ثقل لسانه، فلا يعرف جيرانه، ولا يكلم إخوانه. فكأني أنظر إليك تسمع الخطاب، ولا تقدر علىٰ رد الجواب، ثم تبكي ابنتك وهي كالأسيرة، وتتضرع وتقول: حبيبي أبي مَنْ لِيُتْمي من بعدك؟ ومن لحاجتي؟ وأنت واللَّه تسمع الكلام ولا تقدر علىٰ رد الجواب. وأنشدوا:

وأقبلتِ الصغرىٰ تمرِّغُ خدّها ... علىٰ وجْنتي حيناً وحيناً علىٰ صدري
وتخمش خدّيْها وتبكي بحرقة ... تنادي: «أبي إني غلبت علىٰ الصّبرِ»
حبيبي أبي «مَنْ لليتامىٰ تركتهم ... كأفراخِ زغبٍ في بعيدٍ من الوكر؟»

فخيّل لنفسك يا ابن آدم إذا أُخذت من فراشك، إلىٰ لوح مغتسلك فغسلك الغاسل، وألبست الأكفان، وأوحش منك الأهل والجيران، وبكت عليك الأصحاب والإخوان، وقال الغاسل: أين زوجة فلان تحالله؟ وأين اليتامىٰ تركككم أبوكم فما ترونه بعد هذا اليوم أبداً؟. وأنشدوا:

ألَا أيها المغرورُ مالَكَ تلعبُ ... تؤمّل آمالاً وموتك أقربُ
وتعلم أن الحرصَ بحرٌ مبعّدٌ ... سفينته الدنيا فإياك تعطبُ
وتعلم أن الموتَ ينقضّ مسرعاً ... عليك يقيناً طعمه ليس يعذبُ
كأنك توصي واليتامىٰ تراهم ... وأمّهم الثكلىٰ تنوح وتندبُ
تغصّ بحزنٍ ثم تلطمُ وجهها ... يراها رجالٌ بعد ما هي تحجبُ
وأقبل بالأكفان نحوك قاصدٌ ... ويحثىٰ عليك التّرب والعين تسكبُ

فصل: قال علماؤنا رحمة اللَّه عليهم: فإذا كان هذا الأمر قد أصاب الأنبياء والمرسلين والأولياء والمتقين فما لنا عن ذكره مشغولين؟ وعن الاستعداد له متخلفين؟ ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [صٓ: ٦٧ـ٦٨].

قالوا: وما جرىٰ علىٰ الأنبياء ـ صلوات اللَّه عليهم أجمعين ـ من شدائد الموت وسكراته، فله فائدتان:

إحداهما: أن يعرف الخلق مقدار ألم الموت وأنه باطن، وقد يطلع الإنسان علىٰ بعض الموتىٰ فلا يرىٰ عليه حركة ولا قلقاً ويرىٰ سهولة خروج روحه، فيغلب علىٰ ظنه سهولة أمر الموت، ولا يعرف ما الميت فيه؟ فلما ذكر الأنبياء الصادقون في خبرهم: شدة ألمه، مع كرامتهم علىٰ اللَّه تعالىٰ وتهوينه علىٰ بعضهم، قطع الخلق بشدة الموت الذي يعانيه ويقاسيه الميت مطلقاً لإخبار الصادقين عنه، ما خلا الشهيد قتيل الكفار.

الثانية: ربما خطر لبعض الناس أن هؤلاء: أحباب اللَّه، وأنبياؤه ورسله، فكيف يقاسون هذه الشدائد العظيمة؟ وهو سبحانه قادر أن يخفف عنهم أجمعين.

فالجواب: «أن أشد الناس بلاءً في الدنيا الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل»[1]، كما قال نبينا عليه السلام. فأحب اللَّه أن يبلتيهم تكميلاً لفضائلهم لديه، ورفعة لدرجاتهم عنده، وليس ذلك في حقهم نقصاً، ولا عذاباً؛ بل هو كما قال، كمال رفعة، مع رضاهم بجميل ما يجري اللَّه عليهم، فأراد الحق سبحانه أن يختم لهم بهذه الشدائد، مع إمكان التخفيف والتهوين عليهم، ليرفع منازلهم، ويعظم أجورهم قبل موتهم.

كما ابتلىٰ إبراهيم بالنار، وموسىٰ بالخوف والأسفار، وعيسىٰ بالصحارىٰ

---

(١) هذا الحديث له طرق وشواهد يتقوىٰ بها. انظر: مسند أحمد (١/ ١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥)، والترمذي في الزهد (٢٣٩٨)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٣)، وعبد بن حميد (١٤٦)، والنسائي في الكبرىٰ (٧٤٨١)، وابن حبان (٢٩٠٠)، (٢٩٠١)، (٢٩٢٠)، (٢٩٢١)، والحاكم (١/ ٤١).

والقفار، ونبينا محمداً ﷺ بالفقر في الدنيا ومقاتلة الكفار، كل ذلك لرفعة في أحوالهم، وكمال في درجاتهم، ولا يفهم من هذا أن اللّه شدد عليهم أكثر مما شدد على العصاة المخلطين، فإن ذلك عقوبة لهم، ومؤاخذة على إجرامهم، فلا نسبة بينه وبين هذا.

فصل: إن قال قائل: كل المخلوقات تجد هذه السكرات؟ قيل له: قال بعض العلماء: قد وجب بحكم القول الصدق، والكلمة الحق، أن الكأس مرّ المذاق، وإن قد ذيق ويذاق، ولكن ثم فريقان، وتقديرات وأوزان، وأن اللّه سبحانه وتعالى لما انفرد بالبقاء وحده لا شريك له، وأجرى سنة الهلاك والفناء على الخلق دونه، خالف في ذلك جل جلاله بين المخلوقات، وفرق بين المحسوسات، بحسب ما خالف بين المنازل والدرجات: فنوع أرضي حيواني: إنساني وغير إنساني. وفوقه عالم روحاني وملأ علواني رضواني، كلّ يشرب من ذلك الكأس جرعته، ويغتص منه غُصّته. قال اللّه تعالى: ﴿كُلُّ نفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وإنما أراد سبحانه بالموتات الثلاث للعالمين: فالمتحيز إلى العالم الدنيوي يموت، والمتحيز إلى العالم الملكوتي يموت، والمتحيز إلى العالم الجبروتي يموت. فالأول: هو آدم وذريته، وجميع الحيوان على ضروبه، والملكوتي وهو الثاني: أصناف الملائكة والجن، وأهل الجبروت وهم: المصطفون من الملائكة.

قال اللّه تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] فهم كروبيون، وحملة العرش وأصحاب سرادقات الجلال، كما وصفهم اللّه في كتابه وأثنى عليهم حيث يقول: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠] وهم أهل حضرة القدس المعنيون بقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ

لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧] وهم يموتون علىٰ هذه المكانة من اللَّه تعالىٰ والقربة، وليس زلفاهم بمانع لهم من الموت.

فصل: إذا ثبت ما ذكرناه. فاعلم: أن الموت هو الخطب الأفظع، والأمر الأشنعُ، والكأس التي طعمها أكره وأبشع، وأنه الحادث الأهذم للذات، والأقلع للراحات، والأجلب للكريهات، فإن أمراً يقطع أوصالك، ويفرّق أعضاءك، ويهدم أركانك، لهو الأمر العظيم، والخطب الجسيم، وإن يومه لهو اليوم العظيم.

يحكى أن الرشيد لما اشتد مرضه أحضر طبيباً طوسيّاً فارسيّاً، وأمر أن يُعرض عليه ماؤه ـ أي بوله ـ مع مياه كثيرة لمرضىٰ وأصحاء، فجعل يستعرض القوارير حتىٰ رأىٰ قارورة الرشيد، فقال: قولوا لصاحب هذا الماء يُوصِي؛ فإنه قد انحلت قواه، وتداعت بِنيتُه، ولما استعرض باقي المياه أقيم فذهب، فيئس الرشيد من نفسه (وأنشد):

إن الطبيب بطبِّه ودوائه ... لا يستطيع دِفاع نحْبٍ قَدْ أتىٰ
ما للطبيب يموتُ بالدّاء الذي ... قد كان أبرأ مثله فيما مضىٰ
مات المداوي، والمداوَىٰ، والذي ... جلب الدواء وباعه، ومَن اشترىٰ

وبلغه أن الناس أرجفوا بموته. فاستدعىٰ حماراً، وأمر أن يُحمل عليه فاسترخت فخذاه. فقال: أنزلوني، صدق المرجفون، ودعا بأكفان فتخير منها ما أعجبه، وأمر فشق له قبر أمام فراشه ثم اطلع فيه فقال: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩]. فمات من ليلته.

فما ظنك ـ رحمك اللَّه ـ بنازل ينزل بك، فيذهب رونقك وبهاك، ويغيّر منظرك ورؤياك، ويمحو صورتك وجمالك، ويمنع من اجتماعك واتصالك، ويردّك بعد النعمة والنضرة، والسطوة والقدرة، والنخوة والعزة، إلىٰ حالة يبادر فيها أحب الناس إليك، وأرحمهم بك، وأعطفهم عليك، فيقذفك في حفرة من

الأرض: قريبة أنحاؤها، مظلمة أرجاؤها، محكم عليك حجرها وصيَدانها، فتحكم فيك هوامها وديدانها، ثم بعد ذلك تمكن منك الأعدام، وتختلط بالرغام، وتصير تراباً تُوطأ بالأقدام، وربما ضُرب منك إناء فخّار، أو أُحكم بك بناء جدار، أو طُلي بك محبس ماء أو موقد نار.

كما روي عن علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه أنه أُتي بإناء ماء ليشرب منه فأخذه بيده ونظر فيه وقال: اللَّه أعلم كم فيك من عينٍ كحيلٍ، وخدٍّ أسيلٍ.

ويحكى أن رجُلين تنازعا وتخاصما في أرض فأنطق اللَّه عز وجل لبنة من حائطٍ من تلك الأرض فقالت: يا هذان فيم تتنازعان؟ وفيما تتخاصمان؟ إني كنت ملكاً من الملوك ملكت كذا وكذا سنة ثم متّ وصرت تراباً. فبقيت كذلك ألف سنة ثم أخذني خزاف ـ يعني فخاراً ـ فعمل مني إناء فاستُعملت حتى تكسرت، ثم عدت تراباً فبقيت ألف سنة، ثم أخذني رجل فضرب مني لبنة، فجعلني في هذا الحائط. ففيم تنازعكما؟ وفيم تخاصمكما؟.

قلت: والحكايات في هذا المعنى كثيرة، والوجود شاهد بتجديد ما دثر، وتغيير ما غيّر، وعن ذلك يكون الحفر والإخراج، واتخاذ الأواني وبناء الأبراج، ولقد كنت في زمن الشباب أنا وغيري ننقل التراب على الدواب من مقبرة عندنا تسمَّى بمقبرة اليهود خارج قرطبة، وقد اختلط التراب بعظام من هناك وعظمهم ولحومهم وشعورهم وأبشارهم إلى الذين يصنعون القرمد للشقف[1].

قال علماؤنا رضوان اللَّه عليهم: وهذا التغير إنما يحل بجسدك، وينزل ببدنك لا بروحك؛ لأن الروح لها حكم آخر، وما مضى منك فغير مضاع، وتفرقته لا تمنع من الاجتماع، قال اللَّه تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ

(١) القرمد: هو الآجرّ، والشقف: كِسَر الخزف أو الآجر.

وعِنْدَنا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [قَ: ٤] وقال: ﴿فَمَا بَالُ القُرُونِ الأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ، لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥٠، ٥١].

* * *

٧ ـ باب الموت كفَّارة لكل مسلم

فصل: إنما كان الموت كفّارة لكل ما يلقاه الميت في مرضه من الآلام والأوجاع، وقد قال ﷺ: «ما مِنْ مُسْلِمٍ يصيبه أذىً مِنْ مرَضٍ فما سواه إلَّا حطّ اللَّه به سيئاته كما تَحُطُّ الشَّجرة ورقها»(١).

وفي الموطأ عن أبي هريرة: عن رسول اللَّه ﷺ: «من يُرِدِ اللَّه به خيراً يصب منه»(٢). وفي الخبر يقول اللَّه تعالىٰ: «إنِّي لا أُخرج أحداً من الدنيا، وأنا أريد أن أرحمه، حتَّىٰ أوفّيه بكل خطيئة كان عملها: سقماً في جسده، ومصيبة في أهله وولده، وضيقاً في معاشه، وإقتاراً في رزقه، حتىٰ أبلغ منه مثاقيل الذر؛ فإن بقي عليه شيء شددت عليه الموت، حتىٰ يُفْضِي إليَّ كيوم ولدته أمّه».

قلت: وهذا بخلاف من لا يحبه ولا يرضاه.

وفي مثل هذا المعنىٰ ما خرّجه أبو داود بسند صحيح عن عبيد بن خالد السلمي ـ وكانت له صحبة ـ عن النبي ﷺ: «موت الفَجْأة أخذة أسف للكافر»(٣).

وروي عن ابن عباس أن داود عليه السلام مات فجأة يوم السبت. وعن زيد ابن أسلم مولىٰ عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه قال: «إذا بقي علىٰ المؤمن من

---

(١) رواه البخاري بنحوه في مواضع منها: كتاب المرضىٰ (٥٦٤٧)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٧١).

(٢) مالك في الموطأ في كتاب العين ص٩٤١ (٧)، والبخاري في كتاب المرضىٰ (٥٦٤٥).

(٣) أحمد (٣/ ٤٢٤)، (٤/ ٢١٩)، وأبو داود في الجنائز (٣١١٠) وغيرهما.

ذنوبه شيء لم يبلغه عمله شدّد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وشدائده درجته من الجنة، وإن الكافر إذا كان قد عمل معروفاً في الدنيا، هوّن عليه الموت ليستكمل ثواب معروفه في الدنيا ثم يصير إلى النار».

* * *

٨ ـ باب لا يموت أحد إلاَّ وهو يُحسن باللَّه الظنّ وفي الخوف من اللَّه تعالى

عن جابر قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول قبل وفاته بثلاثة أيام: «لا يموتَنَّ أحدكم إلَّا وهو يُحسن الظن باللَّه»(١).

فإن قوماً قد أرداهم سوء ظنهم باللَّه فقال لهم تبارك وتعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣].

عن أنس أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت فقال: «كيف تجدك؟» فقال: أرجو اللَّه يا رسول اللَّه وأخاف ذنوبي، فقال رسول اللَّه ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد مؤمن في مثل هذا الموطن إلَّا أعطاه اللَّه ما يرجو وأمنه مما يخاف»(٢).

وعن الحسن أنه قال: بلغني عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: قال ربكم عز وجل: «لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين، فمَنْ خافني في الدنيا أمنته في الآخرة، ومَنْ أمنني في الدنيا أخفته في الآخرة»(٣).

فصل: حسن الظن باللَّه تعالى، ينبغي أن يكون أغلب على العبد عند الموت

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢٨٧٧).

(٢) رواه الترمذي في الجنائز (٩٨٣) وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الزهد (٤٢٦١)، وغيرهما، وهو حديث حسن.

(٣) ابن المبارك في الزهد (١٥٧) وغيره، وهو مرسل حسن.

منه في حال الصحة، وهو أن اللَّه تعالىٰ يرحمه ويتجاوز عنه ويغفر له. وينبغي لجلسائه أن يذكّروه بذلك حتىٰ يدخل في قوله تعالىٰ: «أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما يشاء»[1].

وروي عن ابن عمر أنه قال: «عمود الدين، وغاية مجده، وذروة سنامه: حسن الظن باللَّه. فمن مات منكم وهو يُحسن الظنّ باللَّه: دخل الجنة مدلّا» أي منبسطاً لا خوف عليه.

وقال عبد اللَّه بن مسعود: «واللَّه الذي لا إلٰه غيره، لا يُحسن أحد الظنّ باللَّه إلَّا أعطاه اللَّه ظنّه، وذلك أن الخير بيده».

ويروىٰ أن ابن عباس قال: «إذا رأيتم بالرجل الموت فبشّروه ليلقىٰ ربه وهو حسن الظن به، وإذا كان حيّاً فخوفوه». قال الفضيل: «الخوف أفضل من الرجاء ـ ما كان العبد صحيحاً ـ فإذا نزل به الموت، فالرجاء أفضل من الخوف».

وعن المعتمر أنه قال: قال أبي حين حضرته الوفاة «يا معتمر حدثني بالرخص لعلّي ألقىٰ اللَّه وأنا حسن الظن به».

وعن إبراهيم قال: «كانوا يستحبون أن يلقنوا العبد محاسن عمله عند الموت، حتىٰ يحسن ظنّه بربه عز وجل».

وقال ثابت البناني: كان شاب به رهق فلما نزل به الموت انكبت عليه أمّه وهي تقول: يا بني قد كنت أحذّرك مصرعك هذا، قال: يا أمّاه إن لي ربّاً كثير المعروف، وإني لأرجو اليوم أن لا يعدمني بعض معروفه، فقال ثابت: فرحمه اللَّه بحسن ظنّه باللَّه في حاله تلك.

---

(١) حديث قدسي: رواه أحمد (٣/ ٤٩١)، (٤/ ١٠٦)، والحاكم (٤/ ٢٤٠)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٨٧) وغيرهم. قال الهيثمي في المجمع (٢/ ٣١٨): رواه أحمد والطبراني في الأوسط، ورجال أحمد ثقات.

وقال عمر بن ذر يوماً في كلامه ـ وعنده ابن أبي داود وأبو حنيفة ـ أتعذبنا وفي أجوافنا التوحيد؟ لا أراك تفعل. اللَّهم اغفر لمن لم يزل على مثل حال السحرة في الساعات التي غفرت لهم، فإنهم قالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٤٧]. فقال أبو حنيفة: رحمك اللَّه، القصص بعدك حرام.

ويحكى أن يحيى بن زكريا كان إذا لقي عيسى ابن مريم عليهما السلام عبس، وإذا لقيه عيسى تبسم، فقال له عيسى: «تلقاني عابساً كأنك آيس؟» فقال له يحيى: «تلقاني ضاحكاً كأنك آمِن؟» فأوحى اللَّه تبارك وتعالى إليهما: «إنَّ أحبكما إليَّ أحسنكما ظنّاً بي».

وقال زيد بن أسلم: «يُؤتى بالرجل يوم القيامة، فيقال: انطلقوا به إلى النار. فيقول: يا ربِّ فأين صلاتي وصيامي؟ فيقول اللَّه تعالى: اليوم أقنطك من رحمتي كما كنت تقنّط عبادي من رحمتي».

وفي التنزيل: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]. وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في باب سعة رحمة اللَّه وعفوه يوم القيامة، إن شاء اللَّه تعالى.

* * *

٩ ـ باب تلقين الميت لا إله إلاَّ اللَّه

عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول للَّه ﷺ: «لقِّنُوا موتاكم لا إلـه إلَّا اللَّه»[1].

فصل: قال علماؤنا: تلقين الموتى هذه الكلمة سنّة مأثورة عمل بها المسلمون. وذلك ليكون آخر كلامهم «لا إلـه إلَّا اللَّه» فيختم له بالسعادة،

---

(١) رواه مسلم في الجنائز (٩١٦).

وليدخل في عموم قوله عليه السلام «مَنْ كان آخر كلامه لا إلـه إلَّا اللَّه دخل الجنة»[١]. ولينبه المتحضر على ما يدفع به الشيطان، فإنه يتعرض للمحتضر ليفسد عليه عقيدته، على ما يأتي. فإذا تلقنها المحتضر وقالها مرة واحدة فلا تُعاد عليه لئلا يضجر.

وقد كره أهل العلم الإكثار من التلقين، والإلحاح عليه إذا هو تلقنها أو فهم عنه. قال ابن المبارك: «لقّنوا الميت «لا إلـه إلَّا اللَّه» فإذا قالها فدعوه». وإنما ذلك لأنه يُخاف عليه إذا لجّ عليه بها أن يتبرّم ويضجر، ويثقّلها الشيطان عليه، فيكون سبباً لسوء الخاتمة. وكذلك أمر ابن المبارك أن يُفعل به. قال الحسن بن عيسى: قال لي ابن المبارك: لقّني ـ يعني الشهادة ـ ولا تعد عليَّ إلَّا أن أتكلم بكلام ثان. والمقصود أن يموت الرجل وليس في قلبه إلَّا اللَّه عز وجل؛ لأنّ المدار على القلب، وعمل القلب هو الذي يُنظر فيه، وتكون النجاة به. وأما حركة اللسان دون أن تكون ترجمة عما في القلب فلا فائدة فيها، ولا عبرة عندها.

قلت: وقد يكون التلقين بذكر الحديث عند الرجل العالم، كما ذكر أبو نعيم أن أبا زرعة كان في السوق وعنده أبو حاتم، ومحمد بن سلمة، والمنذر ابن شاذان وجماعات من العلماء، فذكروا حديث التلقين فاستحيوا من أبي زرعة فقالوا: يا أصحابنا تعالوا نتذاكر الحديث. فقال محمد بن سلمة: حدثنا الضحاك بن مخلد، حدثنا أبو عاصم، قال حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن صالح بن أبي غريب ولم يجاوزه. وقال أبو حاتم: حدثنا بندار، حدثنا أبو عاصم، عن عبدالحميد بن جعفر، عن صالح بن أبي غريب ولم يجاوزه، والباقون سكوت. فقال أبو زرعة وهو في السوق: حدثنا أبو عاصم عن عبد الحميد بن جعفر عن

---

(١) أحمد (٥/ ٢٣٣)، وأبو داود في الجنائز (٣١١٦) وغيرهما.

صالح بن أبي غريب، عن كثير بن مرة الحضرمي، عن معاذ بن جبل قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «مَن كان آخر كلامُه لا إلـه إلَّا اللَّه دخل الجنة». وفي رواية: «حرّمه اللَّه على النار» وتوفي رحمه اللَّه[1].

ويروىٰ عن عبد اللَّه بن شبرمة أنه قال: دخلت مع عامر الشعبي علىٰ مريض نعوده فوجدناه قد أُلمّ به، ورجل يلقنه الشهادة ويقول له: لا إلـه إلَّا اللَّه وهو يُكثر عليه. فقال له الشعبي: ارفق به، فتكلم المريض وقال: إن تلقني أو لا تلقني، فإنِّي لا أدعها، ثم قرأ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]. فقال الشعبي: الحمد للَّه الذي نجىٰ صاحبنا هذا. وقيل للجنيد ـ رحمه اللَّه ـ عند موته: قل لا إلـه إلَّا اللَّه. فقال: ما نستيه فأذكره.

قلت: لابد من تلقين الميت، وتذكيره الشهادة، وإن كان علىٰ غاية من التيقظ.

* * *

١٠ ـ باب من حضر الميت فلا يلغو وليتكلم بخير وكيف الدعاء للميت إذا مات وفي تغميضه

عن أم سلمة رضي اللَّه عنها قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خيراً، فإن الملائكة يؤمِّنون علىٰ ما تقولون». قالت: فلما مات أبو سلمة أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول اللَّه، إن أبا سلمة قد مات. فقال: «قولي: اللَّهم اغفر لي وله، وأعقبني منه عقبىٰ حسنة» قالت: فقلت: فأعقبني اللَّه مَنْ هو خير منه، رسول اللَّه ﷺ[2].

---

(١) الخطيب في تاريخه (١٠/ ٣٣٥)، والبيهقي في الشعب (٩٢٣٧)، وأشار الحاكم في المستدرك (١/ ٣٥١، ٥٠٠) إلىٰ أنه أملاها في «المعرفة»، وقد عثرنا عليها في «معرفة علوم الحديث» ص٧٦.

(٢) رواه مسلم في الجنائز (٩١٩).

وعنها قالت: دخل رسول اللَّه ﷺ على أبي سلمة وقد شق بصره فأغمضه ثم قال: «إنَّ الروحَ إذا قبض تبعه البصر». فضجّ ناس من أهله، فقال: «لا تدعوا على أنفسكم إلَّا بخير فإنّ الملائكة يؤمِّنون على ما تقولون». ثم قال: «اللَّهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسح له في قبره، ونوِّر له فيه»[١].

فصل: قال علماؤنا: قوله عليه السلام: «إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خيراً» أمر ندب وتعليم بما يقال عند المريض أو الميت، وإخبار بتأمين الملائكة على دعاء من هناك، ولهذا استحب العلماء: أن يحضر الميت الصالحون، وأهل الخير حالة موته ليذكّروه، ويدعوا له ولمن يخلفه، ويقولوا خيراً فيجتمع دعاؤهم وتأمين الملائكة فينتفع بذلك الميت، ومن يصاب به، ومن يخلفه.

* * *

باب منه وما يقال عند التغميض

عن شداد بن أوس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إذا حضرتم موتاكم فأغمضوا البصر فإنّ البصر يتبع الروح، وقولوا خيراً فإن الملائكة تؤمِّن على ما قال أهل الميت»[٢]. وعن حفصة بنت سيرين عن أمّ الحسن قالت: كنت عند أمّ سلمة فجاءها إنسان فقال: فلان بالموت. فقالت لها: «انطلقي فإذا احتضر فقولي: السلام على المرسلين والحمد للَّه ربّ العالمين»[٣]. وعن بكر بن عبد اللَّه المزني قال: إذا غمضت الميت فقل: بسم اللَّه وعلى ملّة رسول اللَّه ﷺ وسبِّح. ثم تلا

---

(١) رواه مسلم في الجنائز (٩٢٠).

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٢٥)، وابن ماجه في الجنائز (١٤٥٥)، والحاكم (١/ ٣٥٢) وغيرهم، وإسناده حسن.

(٣) رواه ابن أبي شيبة (٣/ ١٢٤)، وعبد الرزاق (٦٠٥٢).

سفيان الثوري: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٥]. قال أبو داود: تغميض الميت إنما هو بعد خروج الروح. سمعت محمد بن أحمد المقري قال: سمعت أبا ميسرة، وكان رجلاً عابداً يقول: غمضت جعفر المعلم وكان رجلاً عاقلاً في حالة الموت فرأيته في منامي يقول: أعظم ما كان عليَّ تغميضك قبل أن أموت.

* * *

١١ ـ باب ما جاء أن الميت يحضره الشيطان عند موته وجلساؤه في الدنيا وما يخاف من سوء الخاتمة

روي أن العبد إذا كان عند الموت قعد عنده شيطانان: الواحد عن يمينه والآخر عن شماله، فالذي عن يمينه على صفة أبيه، يقول له: يا بني إني كنت عليك شفيقاً ولك محبًّا، ولكن مُتّ على دين النصرانيّة فهو خير الأديان، والذي على شماله على صفة أمّه، تقول له: يا بني إنه كان بطني لك وعاء، وثديي له سقاء، وفخذي لك وطاء، ولكن مُتّ على دين اليهود وهو خير الأديان. وإن عند استقرار النفس في التراقي والارتفاع تعرض عليه الفتن وذلك أن إبليس قد أنفذ أعوانه إلى هذا الإنسان خاصة واستعملهم عليه ووكلهم به، فيأتون وهو على تلك الحال فيتمثلون له في صورة من سلف من الأحباب الميتين الباغين له النصح في دار الدنيا، كالأب والأمّ والأخ والأخت والصديق الحميم، فيقولون له: أنت تموت يا فلان، ونحن قد سبقناك في هذا الشأن فَمُتّ يهودياً، فهو الدين المقبول عند اللَّه تعالى، فإن انصرم عنهم وأبى، جاءه آخرون وقالوا له: مت نصرانيّاً فإنه دين المسيح، وقد نسخ اللَّه به دين موسى، ويذكرون له عقائد كل ملّة، فعند ذلك يزيغ اللَّه من يريد زيغه، وهو معنى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨] ثم يقبض عند الطعنة.

وقال عبد اللَّه بن أحمد بن حنبل: «حضرت وفاة أبي أحمد، وبيدي الخرقة لأشد لحييه، فكان يغرق ثم يفيق ويقول بيده: لا بعد لا بعد. فعل هذا مراراً فقلت له: يا أبت أي شيء ما يبدو منك؟ فقال: إن الشيطان قائم بحذائي عاضٌّ على أنامله يقول: يا أحمد فُتّني وأنا أقول: لا. بعد لا. حتى أموت»[1].

قلت: وقد سمعت شيخنا الإمام أبا العباس أحمد بن عمر القرطبي بثغر الإسكندرية يقول: حضرت أخا شيخنا أبي جعفر أحمد بن محمد بن محمد القرطبي بقرطبة وقد احتضر. فقيل له: لا إلـه إلَّا اللَّه، فكان يقول: لا. لا. فلما أفاق ذكرنا له ذلك. فقال: أتاني شيطانان عن يميني وعن شمالي. يقول أحدهما: مت يهوديا فإنه خير الأديان، والآخر يقول: مت نصرانياً فإنه خير الأديان. فكنت أقول لهما: لا.. لا، ألِيٌ تقولان هذا؟ فكان الجواب لهما: لا لكما.

قلت: ومثل هذا عن الصالحين كثير يكون الجواب للشيطان: لا لمن يلقنه الشهادة. واللَّه أعلم.

وقال الربيع بن سبرة بن معبد الجهني وكان عابداً بالبصرة: أدركت الناس بالشام وقيل لرجل: يا فلان قل: لا إلـه إلَّا اللَّه. قال: اشرب واسقني، وقيل لرجل بالأهواز يا فلان قل: لا إلـه إلَّا اللَّه فجعل يقول: ده يازده دوازده تفسيره: عشرة، أحد عشر، اثنا عشر. كان هذا الرجل من أهل العمل والديوان، فغلب عليه الحساب والميزان. قال الربيع: وقيل لرجل هاهنا بالبصرة يا فلان قل: لا إلـه إلَّا اللَّه فجعل يقول:

يا رُبَّ قائلةٍ يوماً وقد لغبت: أين الطريقُ إلى حمّام مِنْجابِ

(١) أبو نعيم في الحلية (٩/ ١٨٣)، والذهبي في السير (١١/ ٣٤١) وقال: هذه حكاية غريبة وتفرد بها ابن علم، فاللَّه أعلم.

قال الفقيه أبو بكر أحمد بن سليمان بن الحسن النجاد: هذا رجل قد استدلته امرأة إلى الحمام، فدلّها إلى منزله، فقاله عند الموت.

وهذا الكلام له قصة: وذلك أن رجلاً كان واقفاً بإزاء داره، وكان بابه يشبه باب حمام فمرت به جارية لها منظر، وهي تقول: أين الطريق إلى حمام منجاب؟ فقال لها: هذا حمام منجاب. وأشار إلى داره فدخلت الدار ودخل وراءها، فلما رأت نفسها معه في داره وليس بحمام علمت أنه خدعها فأظهرت له البشر والفرح باجتماعها معه على تلك الخلوة وفي تلك الدار، وقالت له: يصلح أن يكون معنا ما نطيب به عيشنا وتقر به أعيننا، فقال لها: الساعة آتيك بكل ما تريدين وبكل ما تشتهين، فخرج وتركها في الدار ولم يقفلها، وتركها محلولة على حالها ومضى، فأخذ ما يصلح لهما ورجع، ودخل الدار فوجدها قد خرجت وذهبت ولم يجد لها أثراً، فهام الرجل بها وأكثر الذكر لها والجزع عليها، وجعل يمشي في الطرق والأزقة وهو يقول:

يا رُبَّ قائلةٍ يوماً وقد لغبت: أين الطريقُ إلى حمّام مِنْجابِ

وإذا بجارية تجاوبه من طاق وهي تقول:

هلَّا جعلت لها لما ظفرتَ بها حِرْزاً على الدّارِ أو قِفْلاً على البابِ

فزاد هيمانه واشتد هيجانه، ولم يزل كذلك حتى كان من أمره ما ذكر. فنعوذ باللَّه من المحن والفتن.

قلت: ومثل هذا في الناس كثير ممن غلب عليه الاشتغال بالدنيا والهم بها أو سبب من أسبابها، حتى لقد حكي لنا أن بعض السماسرة جاء عنده الموت فقيل له: قل لا إله إلَّا اللَّه. فجعل يقول: ثلاثة ونصف، أربعة ونصف!!! غلبت عليه السمسرة.

ولقد رأيت بعض الحسّاب وهو في غاية المرض، يعقد بأصابعه ويحسب.

وقيل لآخر: قل لا إلـه إلَّا اللَّه، فجعل يقول: الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا والجنان الفلاني اعملوا فيها كذا. وقيل لآخر: قل لا إلـه إلَّا اللَّه، فجعل يقول: عقلك الحمارة. وقيل لآخر: قل لا إلـه إلَّا اللَّه، فجعل يقول: البقرة الصفراء!! غلب عليه حبها والاشتغال بها. نسأل اللَّه السلامة والممات على الشهادة بمنّه وكرمه.

ولقد حكى ابن ظفر في كتاب النصائح له قال: كان يونس بن عبيد ـ رحمه اللَّه تعالى ـ بزازاً، وكان لا يبيع في طرفي النهار ولا في يوم غيم، فأخذ يوماً ميزانه فرضّه بين حجرين، فقيل له: هلا أعطيته الصانع فأصلح فساده؟ فقال: لو علمت فيه فساداً لما أبقيت من مالي قوت ليلة. قيل له: فلِمَ كسرته؟ قال: حضرت الساعة رجلاً احتضر فقلت له: قل لا إلـه إلَّا اللَّه فامتعض، فألححتُ عليه فقال: ادع اللَّه لي. فقال: هذا لسان الميزان على لساني يمنعني من قولها. قلت: أفما يمنعك إلَّا من قولها؟ فقال: نعم. قلت: وما كان عملك به؟ قال: ما أخذت ولا أعطيت به إلَّا حقّاً في علمي، غير أني كنت أقيم المدة لا أفتقده ولا أختبره. فكان يونس بعد ذلك يشترط على مَنْ يبايعه: أن يأتي بميزان ويزن بيده، وإلَّا لم يبايعه.

* * *

١٢ ـ باب ما جاء في سوء الخاتمة وأن الأعمال بالخواتيم

عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة»[1].

(١) رواه مسلم في كتاب القدر (٢٦٥١).

وعن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ قال: «إن العبد ليعمل عمل أهل النار وإنه من أهل الجنة، ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم»(١).

قال أبو محمد عبد الحق: اعلم أن سوء الخاتمة ـ أعاذنا اللَّه منها ـ لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، ما سمع بهذا ولا علم به ـ والحمد للَّه ـ وإنما تكون لمن كان له فساد في العقل، أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة، فيصطلمه الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة، والعياذ باللَّه ثم العياذ باللَّه، أو يكون ممن كان مستقيماً، ثم يتغيّر عن حاله ويخرج عن سننه، ويأخذ في طريقه، فيكون ذلك سبباً لسوء خاتمته وشؤم عاقبته، كإبليس الذي عَبَدَ اللَّه فيما يروى ثمانين ألف سنة، وبلعام بن باعوراء الذي آتاه اللَّه آياته فانسلخ منها بخلوده إلى الأرض، واتباع هواه، وبرصيصا العابد الذي قال اللَّه في حقه: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ﴾ [الحشر: ١٦].

ويروى: أنه كان بمصر رجل يلتزم مسجداً للأذان والصلاة، وعليه بهاء العبادة وأنوار الطاعة، فرقي يوماً «المنارة» على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصراني ذميّ، فاطلع فيها فرأى ابنة صاحب الدار، فافتتن بها وترك الأذان، ونزل إليها ودخل الدار فقالت له: ما شأنك؟ ما تريد؟ فقال: أنتِ أريد. قالت: لماذا؟ قال لها: سلبتِ لُبِّي، وأخذتِ بمجامع قلبي. قالت: لا أجيبك إلى ريبة. قال لها: أتزوجك. قالت له: أنت مسلم وأنا نصرانية وأبي لا يزوجني منك. قال لها: أتنصر. قالت: إن فعلت أفعل. فتنصّر ليتزوجها، وأقام معهم في

(١) البخاري في مواضع منها: كتاب الرقاق (٦٦٠٧)، ومسلم مختصراً في الإيمان (١١٢).

الدار، فلما كان في أثناء ذلك اليوم رقي إلى سطح كان في الدار فسقط منه فمات، فلا هو بدينه ولا هو بها. فنعوذ باللَّه ثم نعوذ باللَّه من سوء العاقبة وسوء الخاتمة.

ويروى أن رجلاً علق بشخص وأحبه، فتمنّع عنه واشتد نفاره، فاشتدّ كَلَفُ البائس إلى أن لزم الفراش، فلم تزل الوسائط تمشي بينهما حتى وعد بأن يعوده، فأُخبر بذلك ففرح واشتد فرحه وسروره، وانجلى عنه بعض ما كان يجده، فلما كان ذاك الشخص في بعض الطريق رجع وقال: واللَّه لا أدخل مداخل الريب، ولا أعرض بنفسي لمواقع التهم. فأخبر بذلك البائس المسكين فسُقط في يده، ورجع إلى أسوأ ما كان به، وبدت علامات الموت وأماراته عليه.

قال الراوي: فسمعته يقول وهو في تلك الحال:

«سلّامُ» يا راحةَ العليلِ وبردَ ذلِّ الدَّنَفِ النحيلِ
رضاك أشهى إلى فؤادي من رحمة الخالقِ الجليلِ

قال: فقلت له: يا فلان اتق اللَّه تعالى. فقال: قد كان ما كان. فقمت عنه فما جاوزت باب داره حتى سمعت صيحة الموت قد قامت عليه. فنعوذ باللَّه من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة.

قال المؤلف رحمه اللَّه: روى البخاري عن سالم عن عبد اللَّه قال: كان كثيراً ما كان النبي يحلف: «لا ومقلِّب والقلوب»[1]. ومعناه يصرفها أسرع من مر الريح على اختلاف في القبول والرد والإرادة والكراهية وغير ذلك من الأوصاف. وفي التنزيل: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]. قال مجاهد: المعنى يحول بين المرء وعقله حتى لا يدري ما يصنع. بيانه:

---

(١) البخاري في مواضع منها: كتاب القدر (٦٦١٧).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [قَ: ٣٧] أي: عقل، واختار الطبري أن يكون ذلك إخباراً من اللَّه تعالىٰ بأنه أملك لقلوب العباد منهم، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء، حتىٰ لا يدرك الإنسان شيئاً إلَّا بمشيئة اللَّه عز وجل.

وقالت عائشة رضي اللَّه عنها: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول «يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي علىٰ طاعتك». فقلت: يا رسول اللَّه، إنك تُكثر أن تدعو بهذا الدعاء فهل تخشىٰ؟ قال: «وما يؤمنني يا عائشة وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الجبار إذا أراد أن يقلّب قلب عبده قلّبه»[1].

(قال العلماء): وإذا كانت الهداية إلىٰ اللَّه مصروفة، والاستقامة علىٰ مشيئته موقوفة، والعاقبة مُغيّبة، والإرادة غير مغالبة، فلا تعجب بإيمانك وعملك وصلاتك وصومك وجميع قربك، فإن ذلك وإن كان من كسبك فإنه من خَلق ربك وفضله الدارِّ عليك وخيره، فمهما افتخرت بذلك، كنت كالمفتخر بمتاع غيره، وربما سُلب عنك فعاد قلبك من الخير أخلىٰ من جوف البعير، فكم من روضة أمست وزهرها يانع عميم، فأصبحت وزهرها يابس هشيم، إذ هبت عليها الريح العقيم، كذلك العبد يُمسي وقلبه بطاعة اللَّه مشرقٌ سليم، فيُصبح وهو بمعصيته مظلمٌ سقيم. ذلك فعل العزيز الحكيم الخلّاق العليم.

عن عثمان رضي اللَّه عنه قال: «اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل ممن كان قبلكم تعبَّد، فعلقت به امرأة غويّة فأرسلت إليه جاريتها، فقالت له: إنا ندعوك للشهادة، فانطلق مع جاريتها، فطفقت الجارية كلما دخل باباً أغلقته دونه، حتىٰ أفضت إلىٰ امرأة وضيئة ـ أي جميلة ـ عندها غلام وباطية خمر، فقالت: إني واللَّه ما دعوتك للشهادة ولكن دعوتك لتقع عليَّ، أو تشرب

(١) رواه أحمد (٤٦/ ٩١، ٢٥١)، وابن أبي شيبة (٧/ ٢٨، ٢٢٤)، وابن أبي عاصم في السنة (٢٢٤) وغيرهم.

من هذه الخمر كأساً، أو تقتل هذا الغلام. قال: فاسقيني من هذه الخمر. فسقته كأساً. قال: زيدوني، فلم يزل يشرب حتىٰ وقع عليها وقتل الغلام. فاجتنبوا الخمر؛ فإنه واللَّه لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر إلَّا ليوشك أن يُخرج أحدُهما صاحبَه»[1].

ويروىٰ أن رجلاً أسيراً مسلماً، وكان حافظاً للقرآن، خُصّ بخدمة راهبين، فحفظا منه آيات كثيرة لكثرة تلاوته، فأسلم الراهبان وتنصر المسلم. وقيل له: ارجع إلىٰ دينك فلا حاجة لنا فيمن لم يحفظ دينه. قال: لا أرجع إليه أبداً؛ فقُتل، وفي الخبر قصته، والحكايات كثيرة في هذا الباب، نسأل اللَّه السلامة والممات علىٰ الشهادة.

وأنشد بعضهم:

قد جَرتِ الأقلامُ في ذي الورىٰ ... بالختم من أمر الحكيم العليمِ
فمن سعيدٍ وشقي ومن ... مثرٍ من المال وعارٍ عديمِ
ومن عزيزٍ رأسه في السُّها ... ومن ذليلٍ وجهه في التّخومِ
ومن صحيحٍ شيّدت أركانه ... وآخر واهي المباني سقيمِ
كلٌّ علىٰ منهاجه سالكٌ ... ﴿ذلك تقديرُ العزيزِ العليمِ﴾

وقال الربيع: سئل الشافعي عن القدَر فأنشأ يقول:

ما شئتَ كان وإن لم أشأ ... وما شئتُ إن لم تشأ لم يَكُنْ
خلقتَ العبادَ علىٰ ما علمتَ ... ففي العلم يجري الفتىٰ والمسنّ
علىٰ ذا مننتَ وهذا خذلتَ ... وهذا أعنتَ وذا لم تعنْ
فمنهم شقيٌّ ومنهم سعيدٌ ... ومنهم قبيحٌ ومنهم حَسنْ
ومنهم غنيٌّ ومنهم فقيرٌ ... وكلٌّ بأعماله مرتهنْ

(١) رواه النسائي في كتاب الأشربة (٨/ ٣١٥) بسند صحيح.

١٣ ـ باب ما جاء في رسل ملك الموت قبل الوفاة

ورد في الخبر: أن بعض الأنبياء عليهم السلام قال لملك الموت عليه السلام: أما لك رسول تقدمه بين يديك ليكون الناس على حذر منك؟ قال: نعم، لي واللَّه رسل كثيرة من الإعلال والأمراض والشيب والهموم وتغيّر السمع والبصر، فإذا لم يتذكر من نزل به ذلك ولم يتب، فإذا قبضته ناديته: ألم أقدّم إليك رسولاً بعد رسول ونذيراً بعد نذير؟ فأنا الرسول الذي ليس بعدي رسول، وأنا النذير الذي ليس بعدي نذير. فما من يوم تطلع فيه شمس ولا تغرب إلّا وملك الموت يُنادي: يا أبناء الأربعين، هذا وقت أخذ الزاد؛ أذهانكم حاضرة، وأعضاؤكم قوية شداد، يا أبناء الخمسين، قد دنا وقت الأخذ والحصاد، ويا أبناء الستين، نسيتم العقاب وغفلتم عن رد الجواب فما لكم من نصير ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧]. ذكره أبو الفرج ابن الجوزي في كتاب (روضة المشتاق والطريق إلى الملك الخلاق).

عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه، عن النبي ﷺ قال: «أعذر اللَّه إلى امرئ أخّر أجله حتى بلغ ستين سنة»[1]. يقال أعذر في الأمر: أي بالغ فيه، أي أعذر غاية الإعذار بعبده، وأكبر الأعذار إلى بني آدم بعثة الرسل إليهم ليتم حجته عليهم ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥] وقال: ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧] قيل: هو القرآن وقيل: هو الرسل إليهم. وعن ابن عباس وعكرمة وسفيان ووكيع والحسين بن الفضل والفراء والطبري قالوا: هو الشيب فإنه يأتي في سن الاكتهال، فهو علامة لمفارقته سن الصبا الذي هو سن اللهو واللعب. قال:

رأيتُ الشَّيْبَ من نُذُر المنايا ... لصاحبه وحَسْبُكَ من نَذيرِ

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٤١٩).

وقال آخر:

تقولُ النفس: غيِّر لون هذا ... عساك تطيب في عمر يسيرِ
فقلت لها: المشيبُ نذيرُ عمري ... ولست مُسَوِّدًا وجه النذيرِ

وقال آخر:

وقائلةٍ: تَخضَّبْ فالغواني ... نَوافِرُ عن مُعاينةِ النّذيرِ

وللقاضي منذر بن سعيد البلوطي رحمة اللَّه تعالىٰ عليه:

كم تصابىٰ وقد علاك المَشِيبُ ... وتعامىٰ جهلاً وأنت اللبيبُ
كيف تَلْهُو وقد أتاك نذيرٌ ... وشِباك الحِمام منك قريبُ
يا مقيماً قد حَانَ منه رحيلٌ ... بعد ذاك الرحيل يومٌ عَصيبُ
إنّ للموتِ سكرةٌ فارْتقبْها ... لا يُداويك إذ أتتك طبيبُ
ثم تثوي حتىٰ تصيرَ رهيناً ... ثم يأتيك دعوةٌ فتجيبُ
بأمورِ المعادِ أنت عليمٌ ... فاعملنّ جاهداً لها يا أريبُ
وتذكّر يوماً تُحاسبُ فيه ... إنّ مَنْ يذكر الممات ينيبُ
ليس في ساعةٍ من الدّهر إلّا ... للمنايا عليك فيها رقيبُ
كل يومٍ ترميك منها بسهمٍ ... إن يخطئ يوماً فسوف يصيبُ

وله أيضاً رضي اللَّه عنه:

ثلاثٌ وستون قد جُزْتَها ... فماذا تؤمّل أو تنتظرْ
وحلّ عليك نذيرُ المشيب ... فما ترعوي أو فما تزدجرْ
تمرّ لياليك مراً حثيثاً ... وأنت علىٰ ما أرىٰ مستمرْ
فلو كنتَ تعقلُ ما ينقضي ... من العمر لاعْتضتَ خيراً بِشرْ
فما لك ـ ويحك ـ لا تستعدّ ... لدارِ المقامِ ودارِ المقرْ
أترغبُ عن فجأةٍ للمنونِ ... وتعلم أن ليس منها وَزَرْ

فإمّا إلىٰ جنّةٍ أزلفت وإمّا إلىٰ سقرٍ تستعرْ

وللفقيه أبي عبد اللَّه محمد بن أبي ذمنين رحمه اللَّه تعالىٰ آمين:

الموتُ في كل حينٍ ينشرُ الكفنا ونحن في غفلةٍ عما يُراد بنا
لا تطمئن إلىٰ الدّنيا وبهجتها وإن توشّحت من أثوابها الحَسَنا
أين الأحبة والجيران ما فعلوا أين الذين همو كانوا لنا سكَنا
سقاهُمُ الموتُ كأساً غيرَ صافيةٍ فصيّرتهمْ لأطباقِ الثّرىٰ رَهَنَا

وروي أن ملك الموت دخل علىٰ داود عليه السلام فقال: مَنْ أنت؟ فقال: مَنْ لا يهاب الملوك، ولا تمنع منه القصور، ولا يقبل الرّشا. قال: فإذاً أنت ملك الموت. قال: نعم. قال: أتيتني ولم أستعد بعد؟ قال: يا داود أين فلان قريبك؟ أين فلان جارك؟ قال: مات، قال: أما كان لك في هؤلاء عبرة لتستعد.

وقيل: «النذير»: موت الأهل والأقارب والأصحاب والإخوان، وذلك إنذار الرحيل في كل وقت وأوان وحين وزمان.

قال:

وأراك تحملهم ولست تردّهم وكأنني بك قد حُملت فلم تُرد

وقيل: كمال العقل: الذي تعرف به حقائق الأمور، ويفصل بين الحسنات والسيئات. فالعاقل يعمل لآخرته، ويرغب فيما عند ربه، فهو نذير، والنذير بمعنىٰ الإنذار، والإنذار والإعذار قريب بعضه من بعض، وأكبر الإعذار إلىٰ بني آدم بعثة الرسل إليهم ثم المشيب أو غيره كما بيّنا. وجعل الستين غاية الإعذار؛ لأن الستين قريب من معترك المنايا، وهو سن الإنابة والخشوع والاستسلام للَّه، وترقّب المنيّة، ولقاء اللَّه؛ ففيه إعذار بعد إعذار، وإنذار بعد إنذار.

الأول: بالنبي ﷺ.

والثاني: بالشيب وذلك عند كمال الأربعين، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ

سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [الأحقاف: ١٥] فذكر عز وجل: أن من بلغ الأربعين فقد آن له أن يعلم مقدار نعم اللَّه عليه وعلىٰ والديه ويشكرها.

قال مالك رحمه اللَّه: أدركت أهل العلم ببلدنا وهم يطلبون الدنيا ويخالطون الناس حتىٰ يأتي لأحدهم أربعون سنة؛ فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس.

(تنبيه): هذا الباب هو الأصل في إعذار الحكام إلىٰ المحكوم عليه مرة بعد أخرىٰ، وكان هذا لطفاً بالخلق، ولتنفيذ القيام عليهم بالحق.

حُكي عن بعض العلماء أنه كان يميل إلىٰ الراحات كثيراً، وكان يخلو في بستان له بأصحابه فلا يأذن لأحد سواهم، فبينما هو في البستان إذ رأىٰ رجلاً يتخلل الشجر فغضب وقال: مَنْ أَذِنَ لهذا؟ وجاء الرجل فجلس أمامه، وقال: ما ترىٰ في رجل ثبت عليه حق فزعم أن له مدافعة تدفعه عنه؟ فقال: ينظره الحاكم بقدر ما يرىٰ. قال السائل: قد ضرب له الحاكم أجلاً فلم يأت بمنفعة ولا أقلع عن اللدد والمدافعة. قال: يقضي عليه. قال: فإنّ الحاكم رفق به وأمهله أكثر من خمسين سنة؟! فأطرق الفقيه وتحدّر عرق وجهه وذهب السائل، ثم إن العالِم أفاق من فكرته فسأل عن السائل، فقال البواب: ما دخل عليكم ولا خرج من عندكم أحد. فقال لأصحابه: انصرفوا؛ فما كان يرىٰ بعد ذلك إلَّا في مجلس يذكر فيه العلم.

فصل: وقد رأيت أن أصل بهذه الحكاية حكايات في الشيب علىٰ سبيل الوعظ والتذكير والتخويف والتحذير.

(حُكي) عن بعض المترفين أنه رفض ما كان فيه بغتة علىٰ غير تدريج، فسئل عن السبب فقال ما معناه: كانت لي أمَةٌ لا يزيدني طول الاستمتاع بها إلَّا غراماً بها، فقلبتُ شعرها يوماً فإذا فيه شعرتان بيضاوان فأخبرتها فارتاعت، وقالت:

أرني فأريتها، فقالت: ﴿جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]، ثم نظرتْ إليَّ وقالت: اعلم أنه لو لم تفترض عليَّ طاعتُك لما أويتُ إليك، فدع لي ليلي أو نهاري لأتزود فيه لآخرتي، فقلت: لا، ولا كرامة. فغضبَت وقالت: أتَحُول بيني وبين ربي وقد آذنني بلقائه؟ اللَّهم بدّل حبّه لي بُغضاً. قال: فبت وما شيء أحبَّ إليَّ من بُعْدها عنِّي! وعرضتها للبيع فأتاني من أعطاني فيها ما أريد، فلما عزمتُ على البيع بكت. فقلت: أنتِ أردتِ هذا، فقالت: واللَّه ما اخترتُ عليك شيئاً من الدنيا. هل لك إلى ما هو خير لك من ثمني؟ قلت: وما هو؟ قالت: تعتقني للَّه عز وجل، فإنه أملك لك منك لي، وأَعْود عليك منك عليّ، فقلت: قد فعلت. فقالت: أمضى اللَّه صفقتك، وبلّغك أضعاف أمَلك. وتَزهَّدت؛ فبغَّضت إليَّ الدنيا ونعيمها.

وقال عبد اللَّه بن أبي نوح: رأيت كهلاً بمسجد رسول اللَّه ﷺ لا يزال ينفض الغبار عن جدرانه بسعفة فسألت عنه، فقيل: إنه من ولد عثمان بن عفان رضي اللَّه عنه، وأن له أولاداً وموالي ونعمة موفورة، وأنه اطّلع في مرآته فصرخ وجنّ ولزم المسجد كما ترى. وإذا أراد أهله أن يأخذوه ليداووه ويصونوه هرب منهم وعاذ بالقبر المكرم فتركوه، فرقبته نهاراً فلم أر منه اختلالاً، ورقبْته ليلاً فلما ذهب جنح من الليل خرج من المسجد فتبعته حتى أتى البقيع، فقام يصلي ويبكي حتى قرب طلع الفجر، فجلس يدعو وجاءت إليه دابة لا أدري أشاة أو ظبية أو غيرها فقامت عنده وتفاجت ـ [أي باعدت بين رجليها وتهيأت للحلْب] ـ فالتقم ضرعها فشرب ثم مسح ظهرها، وقال: اذهبي بارك اللَّه فيك، فولت تهرع، فانسللت فسبقته إلى المسجد، فأقمت ليالي أخرج بخروجه إلى البقيع ولا يشعر بي، وسمعته يقول في مناجاته: اللَّهم إنك أرسلت إليّ ولم تأذن لي فإن كنت قد رضيتني فائذن لي، وإن لم ترضني فوفقني لما يرضيك. قال: فلما حان رحيلي

أتيته مودّعاً فتجهمني، فقلت: أنا صاحبك منذ ليال بالبقيع؛ أصلي بصلاتك، وأؤمّن على دعائك. قال: هل أطلعت على ذلك أحداً؟ قلت: لا. قال: انصرف راشداً، قلت: ما الرسول الذي أُرسل إليك؟ قال: اطّلعت في المرآة فرأيت شيبة في وجهي. فعلمت أنها رسول اللّه إليّ فقلت: ادع لي. قال: ما أنا أهل لذلك.

(ويُقال): إن ملكاً من ملوك اليونان استعمل على ملبسه أمَة أدّبها بعض الحكماء، فألبسته يوماً ثيابه وأرته المرآة، فرأى في وجهه شعرة بيضاء فاستدعى بالمقراض وقصها؛ فأخذتها الأمَة فقبلتها ووضعتها على كفها وأصغت بأذنها إليها، فقال لها الملك: إلى أي شيء تُصغين؟ فقالت: إنني أسمع هذه المبتلاة بفقد كرامة قرب الملك تقول قولاً عجيباً، قال: ما هو؟ قالت: لا يجترئ لساني على النطق به. قال: قولي وأنت آمنة ما لزمت الحكمة. قالت ما معناه أنها تقول: أيها الملك المسلط إلى أمد قريب إني خفت بطشك بي فلم أظهرحتى عهدت إلى بناتي أن يأخذن بثأري، وكأنك بهن قد خرجن عليك؛ فإما أن يعجلن الفتك بك، وإما أن ينقصن شهوتك وقوتك وصحتك حتى تعد الموت غنماً. فقال: اكتبي كلامك؛ فكتبته فتدبره، ثم نبذ ملكه . . . في حديث، وهذا المقصود منه. وفي معناه قيل:

وزائرةٍ للشيْب لاحتْ بمفرقي فبادرتُها خوفاً من الحتف بالنتْفِ
فقالت: على ضعفي اسْتطلتَ وإنما رويْدك حتى يلحقَ الجيشُ من خلفي

وفي الإسرائيليات: أن إبراهيم الخليل لما رجع من تقريب ولده إلى ربه عز وجل رأت سارة في لحيته شعرة بيضاء ـ وكان عليه السلام أول من شاب على وجه الأرض ـ فأنكرتها، وأرته إياها فجعل يتأملها وأعجبته، وكرهتها سارة، وطالبته بإزالتها فأبى، فأتاه ملك الموت. فقال: السلام عليك يا إبراهيم، وكان

اسمه إبرام فزاده في اسمه هاء، والهاء في السريانية للتفخيم والتعظيم، ففرح بذلك فقال: أشكر إلهي وإله كل شيء، فقال له الملك: إن اللَّه قد صيّرك معظماً في أهل السمـٰوات وأهل الأرض، وقد وسمك بسمة أهل الوقار في اسمك وفي خلْقك. أما اسمك فإنك تدعىٰ في أهل السماء وأهل الأرض إبراهيم، وأما خلقك فقد أنزل وقاراً ونوراً علىٰ شعرك. فأخبر سارة بما قال له الملك، وقال: هذا الذي كرهتيه نور ووقار، قالت: إني كارهة له. قال: لكني أحبه. اللَّهم زدني نوراً ووقاراً؛ فأصبح وقد ابيضت لحيته كلها.

وفي الآثار النبوية: «من شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة»[1].

والأخبار في هذا الباب كثيرة، وكذلك الشِّعر، اكتفينا منه بما ذكرنا، وباللَّه توفيقنا. قال أعرابي في الشيب والخضاب:

يا بُؤسَ مَنْ فَقَدَ الشّباب وغُيّرتْ ... منه مفارقُ رأسهِ بِخضابِ
يرجو غضارةَ وجههِ بخضابِهِ ... ومصيرُ كلِّ عمارةٍ لخرابِ
شيئانِ لو بكتِ الدّماءَ عليهما ... عيناي حتىٰ يؤذنا بذهابِ
إني وجدت أجلَّ كلِّ مصيبةٍ: ... فقد الشباب، وفرقة الأحبابِ

* * *

١٤ ـ باب التوبة وبيانها، وفي التائب مَنْ هو؟

قال ﷺ: «إن اللَّه يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[2]. أي عند الغرغرة وبلوغ

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٢١٠)، (٤/ ١١٣، ٢١٠)، (٦/ ٢٠)، والترمذي في الجهاد (١٦٣٤)، (١٦٣٥)، والنسائي في الجهاد (٦/ ٢٦) وغيرهم عن غير واحد من الصحابة.

(٢) رواه أحمد (٢/ ١٣٢، ١٥٣)، (٣/ ٤٢٥)، والترمذي في الدعوات (٣٥٣٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٥٣)، والحاكم (٤/ ٢٥١)، والبغوي (١٣٠٦) وغيرهم.

الروح الحلقوم يعاين ما يصير إليه من رحمة أو هوان، ولا تنفع حينئذ توبة ولا إيمان، كما قال تعالىٰ في محكم البيان: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ [النساء: ١٨] فالتوبة مبسوطة للعبد حتىٰ يعاين قابض الأرواح، وذلك عند غرغرته بالروح، وإنما يغرغر به إذا قطع الوتين، فشخص من الصدر إلىٰ الحلقوم. فعندها المعاينة، وعندها حضور الموت فاعلم ذلك. فيجب علىٰ الإنسان أن يتوب قبل المعاينة والغرغرة. وهو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧].

قال ابن عباس والسّديّ: من قريب: قبل المرض والموت.

وقال أبو مجلز والضحاك وعكرمة وابن زيد وغيرهم: قبل المعاينة للملائكة والسوق وأن يغلب المرء علىٰ نفسه. ولقد أحسن محمود الوراق حيث قال:

قدِّم لنفسك توبةً مرجوّةً ... قبل الممات وقبل حبس الألسُنِ
بادِرْ به غلق النفوس فإنها ... ذخرٌ وغنمٌ للمنيب المُحْسِنِ

قال علماؤنا ـ رحمهم اللَّه ـ: وإنما صحّت منه التوبة في هذا الوقت؛ لأن الرجاء باق ويصح الندم والعزم علىٰ ترك الفعل. وقيل: المعنىٰ: يتوبون علىٰ قرب عهد من الذنب من غير إصرار. والمبادرة في الصحة أفضل وألحق لأمله من العمل الصالح والبعد كل البعد من الموت. وأما ما كان قبل الموت فهو قريب.

وعن الحسن: لما هبط إبليس قال: بعزتك لا أفارق ابن آدم ما دام الروح في جسده. قال اللَّه تعالىٰ: «وعزتي لا أحجب التوبة عن ابن آدم ما لم تغرغر نفسه». والتوبة فرض علىٰ المؤمنين باتفاق المسلمين؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

ولها شروط أربعة: الندم بالقلب، وترك المعصية في الحال، والعزم على أن لا يعود إلى مثلها، وأن يكون ذلك حياء من اللَّه تعالى وخوفاً منه لا من غيره، فإذا اختلّ شرط من هذه الشروط لم تصح التوبة. وقد قيل: من شروطها: الاعتراف بالذنب، وكثرة الاستغفار الذي يحل عقد الإصرار ويثبت معناه في الجنان لا التلفّظ باللسان. فأمّا من قال بلسانه: «أستغفر اللَّه» وقلبه مصرّ على معصيته فاستغفاره ذلك يحتاج إلى استغفار، وصغيرته لاحقة بالكبائر.

وروي عن الحسن البصري أنه قال: استغفارنا يحتاج إلى استغفار.

قال الشيخ المؤلف رحمه اللَّه: هذا مقوله في زمانه فكيف في زماننا هذا الذي يرى فيه الإنسان مكباً على الظلم، حريصاً عليه لا يقلع؟ والسبحة في يده زاعماً أنه يستغفر من ذنبه! وذلك استهزاء منه واستخفاف. وهو ممن اتخذ آيات اللَّه هُزُوًا، وفي التنزيل: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ [البقرة: ٢٣١].

وروي عن عليّ رضي اللَّه عنه أنه رأى رجلاً قد فرغ من صلاته فقال: اللَّهم إني أستغفرك وأتوب إليك (قالها سريعاً). فقال له: يا هذا إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذّابين وتوبتك تحتاج إلى توبة. قال: يا أمير المؤمنين، وما التوبة؟ قال: اسم يقع على ستة معان: على الماضي من الذنوب: الندامة، ولتضييع الفرائض: الإعادة، ورد المظالم إلى أهلها، وإدئاب النفس في الطاعة كما أدأبتها في المعصية، وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية، وأن تزين نفسك في طاعة اللَّه كما زينتها في معصية اللَّه، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته.

وقال أبو بكر الوراق: التوبة يجب أن تكون نصوحاً. وهو أن تضيق عليك الأرض بما رحُبَت، وتضيق عليك نفسك؛ كالثلاثة الذين خُلِّفُوا.

وقيل: التوبة النصوح: هي رد المظالم، واستحلال الخصوم، وإدمان

الطاعات. وقيل غير هذا، وبالجملة فالذنوب التي يُثاب منها إما كفر أو غيره، فتوبة الكافر إيمانه مع ندمه على سالف كفره، وليس مجرد الإيمان نفس التوبة. وغير الكفر: إما حقّ اللَّه وإمّا حق لغيره. فحقّ اللَّه تعالى يكفي في التوبة منه الترك؛ غير أن منها ما لم يكتف الشرع فيها بمجرد الترك؛ بل أضاف إلى ذلك في بعضها قضاء، كالصلاة والصوم. ومنها ما أضاف إليه كفّارة كالحنث في الأيمان وغير ذلك. وأمّا حقوق الآدميين فلا بد من إيصالها إلى مستحقيها، فإن لم يوجدوا تصدّق عنهم، ومن لم يجد السبيل لخروج ما عليه لإعساره فعفو اللَّه مأمول، وفضله مبذول. فكم ضَمِنَ من التبعات، وبدّل من السيئات بالحسنات. وعليه أن يُكثر من الأعمال الصالحات، ويستغفر لمن ظلمه من المؤمنين والمؤمنات: فهذا الكلام في حقيقة التوبة.

[وقد روي في صفة التائب]: إذا تاب العبد ولم يرض خصماؤه فليس بتائب، ومن تاب ولم يغيِّر لباسه فليس بتائب، ومن تاب ولم يغيّر مجلسه فليس بتائب، ومن تاب ولم يغيّر نفقته وزينته فليس بتائب، ومن تاب ولم يغيّر فراشه ووساده فليس بتائب، ومن تاب ولم يوسع خُلقه فليس بتائب، ومن تاب ولم يوسع قلبه وكفّه فليس بتائب، فإذا تاب عن هذه الخصال فذلك تائب حقاً.

قال العلماء: إرضاء الخصوم: يكون بأن يرد عليهم ما غصبهم من مال أو خانهم أو غلّهم أو اغتابهم أو خرق أعراضهم أو شتمهم أو سبّهم فيرضيهم بما استطاع ويتحللهم من ذلك، فإن انقرضوا فإن كان له قِبله مال ردّه إلى الورثة، وإن لم يعرف الورثة تصدّق به عنهم، ويستغفر لهم بعد الموت، ويدعو: اللَّهم عوّض الذم والغيبة، لا خلاف في هذا، وأما تغيير اللباس: فهو أن يستبدل ما عليه من الحرام الحلال. وإن كانت ثياب كِبْر وخيلاء استبدلها بأطمار متوسطة، وتغيير المجلس: هو بأن يترك مجالس اللهو واللعب والجهّال والأحداث،

ويجالس العلماء ومجالس الذكر والفقراء والصالحين، ويتقرّب إلىٰ قلوبهم بالخدمة وبما يستطيع، ويصافحهم. وتغيير الطعام: بأن يأكل الحلال ويُجانب ما كان فيه شبهة أو شهوة. ويغيّر أوقات أكله، ولا يقصد اللذيذ من الأطعمة. وتغيير النفقة: هو بترك الحرام وكسب الحلال. وتغيير الزينة: بترك التزين في الأثاث والبناء واللباس والطعام والشراب. وتغيير الفراش: بالقيام بالليل عوض ما كان يشغله بالبطالة والغفلة والمعصية، كما قال اللَّه تعالىٰ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦]. وتغيير الخلق: هو بأن ينقلب خلقه من الشدة إلىٰ اللين، ومن الضيق إلىٰ السعة، ومن الشكاسة إلىٰ السماحة. وتوسيع القلب: يكون بالإنفاق ثقة بالقيام علىٰ كل حال، وتوسيع الكف: بالسخاء والإيثار بالعطاء. هكذا يبدل كل ما كان فيه كشرب الخمر بكسره وسقي اللبن والعسل، والزنا بكفالة الأرملة واليتيمة وتجهيزهما، ويكون مع ذلك نادماً علىٰ ما سلف منه، ومتحسراً علىٰ ما ضيّع من عمره. فإذا كملت التوبة به علىٰ هذه الخصال التي ذكرنا والشروط التي بيّنا تقبّلها اللَّه بكرمه، وأنسىٰ حافظيه وبقاع الأرض خطاياه وذنوبه. قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

والأصل في هذه الجملة: حديث أبي سعيد الخدري رضي اللَّه عنه في الرجل الذي قتل مائة نفس ثم سأل: هل له من توبة؟ فقال له العالم: ومَنْ يحول بينك وبينها، انطلق إلىٰ أرض بني فلان فإن بها ناساً صالحين يعبدون اللَّه، فاعبدِ اللَّه معهم، ولا تعد إلىٰ أرضك فإنها أرض سوء. الحديث[1].

وعن عبد اللَّه بن مغفل قال: كنت مع أبي وأنا إلىٰ جنبه عند عبد اللَّه بن مسعود فقال له أبي: أسمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم

(١) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٠)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٦).

تاب إلى اللَّه عز وجل تاب اللَّه عليه؟» فقال: نعم سمعته. يقول: «الندم توبة»[١].

وعن عائشة رضي اللَّه عنها قالت: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى اللَّه تاب اللَّه عليه»[٢].

قال اللَّه تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]».

قال الشيخ المؤلف رحمه اللَّه: فدلّ القرآن على أن في الذنوب كبائر وصغائر، خلافاً لمن قال: كلها كبائر، حسب ما بيّناه في سورة النساء[٣]، وأن الصغائر كاللمسة والنظرة تكفّر باجتناب الكبائر قطعاً بوعده الصدق وقوله الحق، لا أنه يجب عليه ذلك، لكن بضميمة أخرى إلى الاجتناب، وهي إقامة الفرائض كما نص عليه الحديث. ومثله: ما رواه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفّرات ما بينهن إذا اجتُنبت الكبائر»[٤]. على هذا جماعة أهل التأويل وجماعة الفقهاء وهو الصحيح في الباب.

وأما الكبائر فلا يكفّرها إلَّا التوبة منها والإقلاع عنها كما بيّنا، وقد اختلف في تعيينها ليس هذا موضع ذكرها. وسيأتي في القصاص، وفي أبواب النار جملة منها إن شاء اللَّه تعالى.

* * *

(١) رواه أحمد (١/ ٣٧٦، ٤٢٣، ٤٣٣)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٥٢)، والحاكم (٤/ ٢٤٣)، والبغوي (١٣٠٧) وغيرهم.

(٢) رواه البخاري في التفسير (٤٧٥٧)، ومسلم في التوبة (٢٧٧٠) ضمن حديث قصة الإفك.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٥/ ١٠٤ ـ ١٠٦).

(٤) رواه مسلم في كتاب الطهارة (٢٣٣).

١٥ ـ باب لا تخرج روح عبد مؤمن أو كافر حتى يبشر وأنه يصعد بها

محمد بن كعب القرظي قال: إذا استنقعت نفس العبد المؤمن جاءه ملك الموت فقال: السلام عليك يا ولي اللَّه، اللَّه يقرئك السلام، ثم نزع بهذه الآية ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [النحل: ٣٢].

ومعنى (استنقعت): أي هدأت واطمأنت استعداداً لخروج الروح.

وقال ابن مسعود: إذا جاء ملك الموت ليقبض روح المؤمن قال: ربك يقرئك السلام.

وعن البراء بن عازب في قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]: فيُسلّم ملك الموت على المؤمن عند قبض روحه، لا يقبض روحه حتى يُسلِّم عليه[1].

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «تحضر الملائكة فإذا كان الرجل صالحاً قالوا: أُخرجي أيّتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب. اخرجي حميدة وأبشري بِرَوْحٍ وريحان وربٍّ غير غضبان. فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيفتح لها فيقال: مَنْ هذا؟ فيقولون: فلان بن فلان فيُقال: مرحباً بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب. ادخلي حميدة وأبشري بروْحٍ وريحان ورب راض غير غضبان. فلا يزال يقال لها ذلك حتى تنتهي إلى السماء التي فيها اللَّه تعالى. فإذا كان الرجل السوء قال: اخرجي أيّتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث. اخرجي ذميمة وأبشري بجحيم وغسّاق وآخر من شكله أزواج. فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٦٨).

فيستفتح لها فيقال: مَنْ هذا؟ فيقال: فلان بن فلان. فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث. ارجعي ذميمة فإنها لا تفتح لك أبواب السماء. فترسل من السماء ثم تصير إلى القبر»[١].

وذكره مسلم عن أبي هريرة قال: «إذا خرجت روح العبد المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها». ـ قال حماد: فذكر من طيب ريحها وذكر المسك ـ قال: «ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قِبَل الأرض. صلى اللَّه عليكِ وعلى جسد كنت تعمرينه. فينطلق به إلى ربه ثم يقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل، وإن الكافر إذا خرجت روحه ـ قال حماد: وذكر من نتنها وذكر لعناً ـ ويقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قِبَل الأرض قال: فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل». قال أبو هريرة: فردّ رسول اللَّه ﷺ ريطة كانت عليه على أنفه هكذا[٢].

وعن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أحبّ لقاء اللَّه أحبَّ اللَّه لقاءه، ومَنْ كَرِهَ لقاء اللَّه كَرِه اللَّه لقاءه»، فقالت عائشة ـ أو بعض أزواجه ـ: إنا لنكره الموت، فقال: «ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّر برضوان من اللَّه وكرامته؛ فليس شيء أحبّ إليه مما أمامه؛ فأحب لقاء اللَّه وأحب اللَّه لقاءه. وإن الكافر إذا حضره الموت بُشِّر بعذاب اللَّه وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه؛ فكره لقاء اللَّه وكره اللَّه لقاءه»[٣].

فصل: هذا الحديث، وإن كان مفسراً مبيناً، فقد روي عن عائشة رضي اللَّه عنها في تفسيره: أنها قالت لشريح بن هاني وقد سألها عما سمعه من أبي هريرة: وليس بالذي تذهب إليه، ولكن إذا شخص البصر، وحشرج الصدر، واقشعر

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٦٤، ٢٨٨، ٢٩٦)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٦٢).

(٢) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢٨٧٢).

(٣) رواه البخاري في كتاب الرقاق (٦٥٠٧)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء (٢٦٨٣)، (٢٦٨٤).

الجلد، تشنجت الأصابع؛ فعند ذلك: من أحب لقاء اللَّه أحب اللَّه لقاءه، ومن كره لقاء اللَّه كره اللَّه لقاءه[١].

وعن أنس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه عز وجل إذا أراد بعبد خيراً استعمله. فقيل: كيف يستعمله يا رسول اللَّه؟ قال: يوفقه لعمل صالح قبل الموت»[٢].

قال الشيخ المؤلف رحمه اللَّه ومنه الحديث الآخر: «إذا أراد اللَّه بعبده خيراً عسله». قالوا: يا رسول اللَّه وما عسله؟ قال: «يفتح اللَّه له عملاً صالحاً بين يدي موته حتى يرضى عنه من حوله»[٣].

وعن قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة: ٨٩] قال: الرَّوْح: الرحمة، والرَّيْحان: تتلقاه به الملائكة عند الموت.

ومن حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن إذا احتضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر ريحان فتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين، ويُقال: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨] مرضياً عنكِ إلى روح اللَّه وكرامته، فإذا خرجت روحه وُضِعَت على ذلك المسك والريحان وطويت عليها الحريرة، وذهب بها إلى عليين، وإن الكافر إذا احتضر أتته الملائكة بمسح فيه جمرة، فتنزع روحه انتزاعاً شديداً ويقال: أيتها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة مسخوطاً عليك إلى هوان اللَّه

---

(١) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء (٢٦٨٥).

(٢) رواه أحمد (٣/ ١٠٦، ١٢٠)، والترمذي في القدر (٢١٤٢) وقال: «هذا حديث حسن صحيح». ورواه أيضاً الحاكم (١/ ٣٤٠) وغيرهم.

(٣) رواه أحمد (٤/ ٢٠٠)، وابن أبي عاصم في السنة (٤٠٠)، والطبراني في الكبير (٧٥٢٢)، (٧٧٢٥).

وعذابه، فإذا خرجت روحه وُضِعَت على تلك الجمرة، ويطوى عليها المسح، ويُذهب بها إلى سجين»[١].

* * *

١٦ ـ باب ما جاء في تلاقي الأرواح في السماء والسؤال عن أهل الأرض وفي عرض الأعمال

عن أبي أيوب الأنصاري رضي اللَّه عنه قال: إذا قبضت نفس المؤمن تلقاها أهل الرحمة من عباد اللَّه تعالى كما يتلقون البشير في الدنيا، فيقبلون عليه يسألونه فيقول بعضهم لبعض: أنظروا أخاكم حتى يستريح، فإنه كان في كرب شديد، قال: فيقبلون عليه فيسألونه: ما فعل فلان؟ ما فعلت فلانة هل تزوجت؟ فإذا سألوه عن الرجل قد مات قبله فيقول: إنه هلك فيقولون: إنا للَّه وإنا إليه راجعون. ذُهِب به إلى أمِّه الهاوية فبئست الأم وبئست المربيّة. قال: فتُعرض عليهم أعماله فإن رأوا حسناً فرحوا واستبشروا وقالوا: اللَّهم هذه نعمتك على عبدك فأتمّها. وإن رأوا شرّاً قالوا: اللَّهم راجع بعبدك[٢].

وعن عبد الرحمـٰن بن جبير بن نفير أن أبا الدرداء كان يقول: إن أعمالكم تُعرض على موتاكم فيسرّون ويُساؤُون قال: يقول أبو الدرداء: اللَّهم إني أعوذ بك أن أعمل عملاً يخزى به عبد اللَّه بن رواحة.

وفي رواية: اللَّهم إني أعوذ بك من عمل يخزيني عند عبد اللَّه بن رواحة[٣].

عن عثمان بن عبد اللَّه بن أوس أن سعيد بن جبير قال له: استأذن لي على

---

(١) رواه النسائي بنحوه في الجنائز (٤/ ٨ ـ ٩)، والحاكم (١/ ٣٥٢، ٣٥٣)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٠٤) وغيرهم.

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد (٤٤٣)، (٤٤٤) وهو حسن موقوفاً، ضعيف مرفوعاً.

(٣) رواه ابن المبارك في زوائد الزهد (١٦٥).

ابنة أخي، وهي زوجة عثمان وهي ابنة عمرو بن أوس، فاستأذنت له فدخل عليها ثم قال: كيف يفعل بكِ زوجكِ؟ قالت: إنه إليّ لمحسن فيما استطاع. فالتفتّ إليّ ثم قال: يا عثمان أحسن إليها فإنك لا تصنع بها شيئاً إلَّا جاء عمرو ابن أوس فقلت: وهل تأتي الأموات أخبار الأحياء؟ قال: نعم ما من أحد له حميم إلَّا ويأتيه أخبار أقاربه، فإن كان خيراً سرّ به وفرح وهنئ به، وإن كان شرّاً ابتأس وحزن به، حتىٰ إنهم ليسألون عن الرجل قد مات فيقال: أو لم يأتكم؟ فيقولون: لا، لقد خولف به إلىٰ أمِّه الهاوية[1].

وعن الحسن البصري رضي اللَّه عنه قال: إذا قبض روح العبد المؤمن عُرِجَ به إلىٰ السماء فتلقاه أرواح المؤمنين فيسألونه فيقولون: ما فعل فلان؟ فيقول: أولم يأتكم؟ فيقولون: لا واللَّه ما جاءنا ولا مرّ بنا، فيقولون: سلك به إلىٰ أمِّه الهاوية. فبئست الأمّ وبئست المربيّة[2].

فصل: هذ الأخبار وإن كانت موقوفة فمثلها لا يُقال من جهة الرأي[3].

وقد خرّج النسائي بسنده عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أن رسول للَّه ﷺ قال الحديث وفيه: «فيأتون به أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحاً من أحدكم بغائبه يقدم عليه، فيسألونه: ما فعل فلان؟ ما فعلت فلانة؟ فيقولون: دعوه فإن كان في غمّ الدنيا، فإذا قال: أو ما أتاكم؟ قالوا: ذهب به إلىٰ أمِّه الهاوية»[4] وذكر الحديث.

وقد قيل في قوله عليه الصلاة والسلام: «الأرواح جنود مجنَّدة، فما تعارف

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (٤٤٧).

(٢) رواه ابن المبارك بنحوه في الزهد (٤٤٣) عن أبي أيوب الأنصاري.

(٣) قلت: نعم مثله لا يقال من جهة الرأي، ولكن بعض ذلك قد يؤخذ عن أهل الكتاب، وفي حديث النسائي الآتي بعد: أن الأموات يجهلون أحوال الأموات ولا يدرون ما عملهم.

(٤) رواه النسائي في الجنائز (٤/ ٨).

منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف[١] : إنه هذا التلاقي، وقد قيل: تلاقي أرواح النيام والموتى، وقيل غير هذا. والله أعلم.

* * *

١٧ ـ باب في شأن الروح وأين تصير حين تخرج من الجسد؟

قال أبو الحسن القابسي رحمه الله: الصحيح من المذهب، والذي عليه أهل السنة، أنها ترفعها الملائكة حتى توقفها بين يدي الله تعالى فيسألها، فإن كانت من أهل السعادة قال لهم: سيروا بها وأروها مقعدها من الجنة. فيسيرون به في الجنة على قدر ما يغسل الميت. فإذا غسل الميت وكُفِّن ردّت وأدرجت بين كفنه وجسده، فإذا حمل على النعش فإنه يسمع كلام الناس، مَنْ تكلّم بخير ومَنْ تكلّم بشرّ. فإذا وصل إلى قبره وصُلِّي عليه، ردّت فيه الرّوح وأُقعد ذا روح وجسد، ودخل عليه الملكان الفتانان على ما يأتي.

وعن عمرو بن دينار قال: ما من ميّت يموت إلّا روحه في يد ملك، ينظر إلى جسده كيف يُغسّل، وكيف يُكَفَّن، وكيف يُمشى به فيجلس في قبره.

قال داود: وزاد في هذا الحديث. قال: يقال له وهو على سريره: اسمع ثناء الناس عليك. ذكره أبو نعيم الحافظ في باب عمرو[٢].

فصل: وأمّا الكافر فتؤخذ نفسه عنفاً، والملك يقول: اخرجي أيّتها النّفس الخبيثة من الجسد الخبيث، فإذا له صراخ أعظم ما يكون كصراخ الحمير، فإذا قبضها ملك الموت ناولها زبانية قباح الوجوه، سود الثّياب، منتني الرّائحة، بأيديهم مسوح من شعر، فيلفونها فيستحيل شخصاً، والكافر يكون أعظم جرماً من المؤمن، يعني في الجسم في الآخرة، وفي الصحيح: «أن ضرس الكافر في

---

(١) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٦)، ومسلم في كتاب البر والصلة (٢٦٣٨).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٤٩) بسند صحيح.